توأما النار

في واقع اجتماعي اقطاعي مثقل الضغط والتخلف والعلاقات الاجتماعية البالية، وبالذات في مجتمع كردي شرق؛ ولدت عاشقة، متعطش.من سنين وشهور.. منذ أيام وساعات.. منذ دقائق وثواني ذاقت مرارتها لحظة بلحظة.. منها ازداد حبها للانتقام.. بآلامها خلقت ارادتها، بمرارتها جددت أملها وثقتها وأتمت وعيها وعلمها، وبها شهدت ولادة روح جديدة. عشقت أن تكون فدائية لاجل السلام والحرية، ذلك ان الحرية تستحق الفداء أكثر من مرة.

تقول عن ذاتها "عشت في كنف أهلي كالخادمة، اقوم بجميع الأعمال المنزلية بروح طوعية، لكن لم ارَ مقابل ذلك قيمة لي". منذ بكارة سنها وهي مقتنعة بان الزواج يزج بالمرء في القفص، ويغلق أمامه كل آفاق التفكير، يصفد الحرية ويذبح السلم الامن.

تنتمي الرفيقة ليلى الى عائلة وطنية متوسطة الحال، مثقلة بالافكار العشائرية والاقطاعية التي لا تعترف باية حقوق للمرأة كإنسان، ولا تعطيها اية قيمة تذكر. لذا واجهت الرفيقة ليلى الكثير من المصاعب في حياتها، وكان لها عشق كبير للحرية. لهذا كانت تشاطر رفيقاتها في افكارها هذه، وتتناقش معهن سرا، متطلعة الى اليوم الذي تنال فيه حريتها كانسان ذي كرامة وعزة...

أرادت الرفيقة ليلى اقناع العائلة بافكار الحزبPKK ولكنها كانت تواجهها كما الحجر الاصم، ولا غرابة في ذلك، ذلك ان المرأة هي الشرف الاكبر، لا الوطن! بالنسبة لهم، ولم تتلق أي جواب.

عندما سمعت الرفيقة نبأ أسر قيادتنا في 15 شباط 1999 لم تستطيع تحمل ذلك الخبر المؤسف الذي كان نزل عليها كما الصاعقة.. دارت بها الدنيا، وراحت تفكر في وسيلة بفجر بها غضبها اللا متناهي، وتسعى للوصول الى الحياة المشرفة، بحيث تتقرب من جوهر القيادة وتلتحم بها.. اجترت احاسيسها في ذلك اليوم.. لم يعرف النوم لعينيها طريقها في تلك الليلة.. وبدأت تراودها أفكار لا نهاية لها تتزاحم على فكرها...

" ما الذي سيحل بنا بعد اعتقال القيادة؟ ما الذي بإمكاني عمله؟... وأسئلة أخرى كثيرة حيرتها ولم تعرف لها جوابا... ظلت تنظر الى السماء بصمت وحزن ثقيل قد حلاّ ضيفاً على قلبها الغض في تلك الليلة"...

لم تفارقها تلك المشاهد المأساوية التي كانت قد شاهدتها على شاشة التلفاز ولو ثانية واحدة... وأخذت تردد في قرارة نفسها " اسمك محفور في قلبي قائدي.. أنك أغنية تتجدد على شفاه الملايين.. يا من رسمت لنا طريق الحياة الحرة ووضعت بافكارك ابجدية الحياة المشرفة.. قائدي.. عاشقة أنا، وعشقي مدفون في الاعماق منذ سنين، وقد حان الوقت لأعلن فيه عن عشقي هذا دون أي تردد أو خوف".

وفي صباح السادس عشر من شباط وصلت الرفيقة ليلى الى حل جذري وقرار صارم. أخذت ملابسها ودخلت الحمام كي لا يلاحظ أحد ما تنوي عليه.. اضرمت النار بجسدها الطاهر، ووقفت لاستقبال العشق الذي طالما انتظرته سنين طويلة الى ان نفذ الصبر.. أنه عشق كردستان والحرية...

بعد مرور خمسة عشر دقيقة علمت العائلة بالامر عندما انتبهت للدخان الرمادي المتصاعد من الحمام... ركض أفراد العائلة فزعين، فتحوا الباب، ولم تر عيونهم إلا جسدا تأكله النار بنهم دون أن تشبع...

كيف تحرقين جسد الطاهر الناعم!...

وتخرج ليلى من الحمام والنار تلفها بلهيبها.. بقيت واقفة تنظر الى ما حولها وتلقي عليه نظرة الوداع الاخيرة.. كانت نظرة حميمة عميقة..

"لا تخافوا فسوف تشرق الشمس.. لا تخافوا.. سيتحد لهيب ناري بأشعة الشمس لينير لكم دربك.. لا أحد يستطيع يعتم شمسنا.. !Kes nikare roja me tari bike وتتقطر قطرات الدهن من جسدها...

لم تستنجد بأحد، ولم تقبل اخماد النار..

"أريد أن احترق واحرق معي أمراض آلاف السنين وجراثيم هذا المجتمع التي تنخر جسده".

نقلت ليلى الى المستشفى، فتعجب الاطباء من حالها، ومن الحروق التي نهشت بدنها الصغير.. فتحت عينيها فقالت" لا أملك ما هو أغلى من جسدي ففديته لقائدي.. قمت بهذه العملية بمحض إراداتي وقراري الطوعي.. أن ما أفعله لا يذكر مقابل ما فعله الرفاق الشهداء الأوائل مظلوم وزكية ورهشان..".

لم تعرف الرفيقة ليلى الخوف ولو للحظة، ولم تتردد في قرارها الصارم لتبيان مدى ارتباطها بالقيادة ورغبتها الجامحة للاعراب عن مدى حبها لها وتشبثه بنهجها الحر المشرف، فأضرمت النار في جسدها الطاهر مظهرة للعالم اجمع ان القائد ليس وحيدا، وأنه يعيش في قلوب الملايين المستعدين للتضحية بأغلى ما عندهم في سبيل حرية قائدهم.. ذلك أنه " لا حياة بدون القائد آبو".

لم تتحمل صديقات الشهيدة ليلى أن يبقين صامتات عما يجري ويكتفين بالتفرج على المجريات دون أن يكون لهن حصة منها، فأبين إلا ان ينضممن لصفوف الانصار بعد شهادتها التي أثرت عليهن كثيرا وهزتهن من الصميم.

ومن بين الصديقات اللواتي كن حميمات مع ليلى كانت هناك شخصية فولاذية لا تعرف الخنوع وتأباه، ذات عزم وإرادة لا تلين.. أنها زليخة التي عاشت في نفس الواقع المرير الذي عاشت فيه ليلى.. وهي أقرب صديقاتها إليها، حيث كانت تتناقشان كثيرا حول الحزب والقائد.. بعد شهادة ليلى فكرت زليخة كثيرا فيما يمكن لها أن تعمل.. جسدت في فكرها مخططا لتزين نفسها بلهيب نار زكية وسما وليلى..

تشير الساعة الى الحادية عشرة من ظهر يوم السادس عشر من شباط 1999، عندما شرعت بصنع الشاي لاسرتها.. ملأت كوبا من الشاي المر لنفسها.. لقد اعتادت على مرارة الشاي وكل أنواع المرارة!.. نظرت الى الكأس وسرحت بخيالها إلى ما وراء الكون الموجود.. الى عالم الروح الطاهرة المقدسة.. عالم الاجلال الذي يخشع فيه الكل أمام عظمة وخيبة الروح الربة.. وراحت تردد فر قرارة نفسها" رفيقتي ليلى لم تكن لها أية علاقة مع PKK، وها هي الآن شهيدة من شهداء PKK الخالدين.. ترقد في الأعالي الساحقة بين الآلهة المبجلين.. وأنا! ماذا سأفعل بعدما فعلت هي ما فعلته؟!.. أجل.. عليّ أنا أيضا أن اتخذ قراري الحاسم، إذ حان الوقت لقول الكلمة الحق مهما كان الثمن.. لا داعي للتردد والخوف.. ولم الخوف!؟.. ما الذي سأخسره!؟.. لن أخسر سوى عبوديتي وحياتي الزائفة الخاوية.. وأنا لا أقبل أن استمر في حياة كهذه إلى أن يفنى عمري هباء.. سأوحد روحي مع نهج القائد آبو ومع روح الشهيدة ليلى.. سأكون نجمة متلألئة وشمسا مشرقة وعشقا أبديا ورمزا مشرفا في جميع القلوب العاشقة للوطن والحرية والقيادة"...

بعدها شربت زليخة نصف كأس الشاي وذاقت مرارته دون تأثير.. وذهبت الى المطبخ.. ها هو الدخان يتصاعد.. لقد أضرمت النار بجسدها في المطبخ.. وها هو بدنها الغض يذوب مع ازدياد ألسنة النار دون أن

تنطق ببنت شفة.ز يحترق جسدها تما مثلما يتلوع قلبها على القائد الوطني آبو وينفجر الغيظ الكامن فيه على الأيادي القذرة التي تحاول تعتيم الشمس..

حامت الاسرة حول الرفيقة زليخة لاخماد النار، لكنها أبت ذلك بصرامة، وأشارت لهم بالابتعاد:" أريد أن أصبح رمادا لتحترق كل آفات آلاف السنين وأطهر منها.. لأترك أثرا لا يمحى في صفحات التاريخ"..

والتفت الرفيقة زليخة بصديقتها الحميمة ليلى في المشفى.. ألقتا التحية على بعضيهما بعيون كلها أمل وتوق للحرية.. لقد تعاهدتا الا تبقيا دون عشق.. وأقسمتا الا تتركا عشقهما مكبوتا في الاعماق..

"إذا بقينا على قيد الحياة فسنعيش بعشق كبير مع القائد آبو ونتقاسم الآلام والآمال مع شعبنا العزيز الصامد.. سنعيش مع عشاق الحرية على ذرى الجبال الشاهقة.. وإذا استشهدنا فسنكون في سماء الخلود مع الأرواح المقدسة نطل على أحبائنا وشعبنا في كل مساء لننير له دربه المعتم"...

وخلال اسبوع من تحدي الصراع والآلام والعذاب المرير أصبحت الرفيقة زليخة أيضا شمعة لا تنطفئ على درب الحياة الكريمة والتاريخ....

لقد أصبحت كل من الرفيقتين ليلى وزليخة نبراسا لرفيقاتهما اللاتي انضممن في ذلك الوقت الى صفوف الانصار، ايفاء منهن لجزء ضئيل جدا للدين الواقع على عاتقهن مقابل صداقتهن لهما ووعودهن المشتركة في السعي للوصول الى الحياة المشرفة وتجديدها في الذات.

وها نحن أيضا نعرب عن التزامنا بالسير على درب الشهيدة ليلى وزليخة وكل الشهداء البررة الذي ضحوا بأرواحهم ودمائهم الذكية في سبيل انارة دربنا والوصول الى حياة حرة مشرفة.

نعاهدكم مجددا أننا على دربكم السائرون...

صادر في مجلة صوت الحياة عدد خاص شباط 2002

الصفحة 24-26